(٢)

مَصِيرُ الإنسان

الوجُود ... والعَدم

« وقالوا ما هي إلا حياتُنا الدنيا نموتُ ونحيا وما يُهلكنا إلا الدهر ، ومَا لَهم بذلك من علمٍ إنْ هم إلا يَظنُّون »

(سورة الجاثية)

إن تكن حياة الإنسان لا تعدو هذه الرحلة العابرة من المهد إلى اللحد ، فما أبشعها من مأساة تدعو إلى القنوط وتخنق في الأحياء منا إرادة الحياة !

ومن قديم ، حاولت البشرية قبلَ عصر الأديان أن تقاوم فكرةَ العدم ، وكأنها أدركت بفطرتها أن كل مغريات الوجود لا تكفي لحماية الإنسان من رفض حياةٍ تنتهي حتماً بهذا المصير الرهيب .

ولعلها في عصورها البدائية ، كانت مدفوعةً إلى هذه المقاومة بغريزة البقاء ، أو محكومة بالسنن الكونية التي تريد لهذه الحياةِ أن تستمر .

ذلك لأن رفضَ الحياة يعوق استمرارَها ، ويُغري البشرية بالتمرد على ما تُلقيه عليها من أعباءٍ فادحة ثقال ، وبخاصةٍ في تلك العصورِ الخالية التي عاشتْها البشرية في صراعٍ منهك مع قوى الطبيعة العاتية وأسرار الكون الملغزة ، تجد وراءَ كلِّ خطوة تخطوها عدوّاً خفياً أو ظاهراً يترصد لها ، دون أن تملكَ وسيلةً للبقاءِ سوى الحرصِ على البقاء .

وأرهف ذلك الصراعُ المضني طاقة كامنة في البشرية ، ربما أدهشت الإنسانَ نفسه وهو يواجه أعداءه أعزلَ من أي سلاح إلا ما يثيره التحدّي في كيانه من رغبةِ النضال دفاعاً عن وجوده . فمضى يتابع نضالَه الباسل في المعركة فكلما حقق انتصاراً في جولة من جولاتها ازداد قدرة على مواصلة الصراع بمقدار ما أضاف إلى جعبته من أسلحة معنوية

ومادية . ومن ثم قَوِيَ تشبثُه بالحياة بعد أن فهم بعض ألغاز الوجود وذلّلَ بعض العناصر الكونية لخدمته ، فلم يعد حرصُه على البقاء مجردَ استجابة غريزية أو خضوعٍ لسنةٍ كونية فحسب ، بل صار كذلك يستبشع فكرةَ العدم لأنها تُدمر فيه إرادةَ الكفاح ، إذ لا معنى لذلك الدأبِ المضني في تحقيق وجوده وفرض سلطانه على الكائنات ، والموتُ يتربصُ به ليحسمَ ذلك العبثَ العقيمَ بغمضةِ عينٍ لا يقظةَ بعدها أبداً!

* * *

وكانت عقيدةُ البعث في الديانة المصرية القديمة ، محاولةً مستبسلة لمقاومة فكرة العدم بعد الموت ، وهذه العقيدة هي التي هيّأتْ لإنسان وادي النيل قدرتَه المبدعة على بناء الحضارة البشرية الأولى .

على حين التمس إنسانُ وادي الرافدين القديم — الذي يسامي المصريَّ عراقةَ التحضر — أملَه البعيد ، في تجدُّد الحياة الإنسانية يتمثل في بعثٍ دوري متجدد ، بعد طولِ تأمل في دورة الفصول الأربعة ، حيث تتجددُ الحياةُ في كل ربيع وتنضج في الصيف بعد أن تذبلَ في الخريف وتموتَ في الشتاء . وإن تكن المعتقدات السومرية ، فيما نعلم ، قد أصرّتْ على قصرِ الخلود على الآلهة ومن تصطفيهم من البشر الصالحين . ولعل «نوحـــاً» وحده ، هو الذي آثرته السومرية بهذا الخلود لأنه أنقذ البشرية من الطوفان ، على حين أبتْ الملحمةُ البابلية «جليجامش» الخلودَ على ذلك الملك البطل المصلح ، لكونه من البشر . ومنَحَ مجمعُ الآلهة «الراعيَ تموز» خلوداً دورياً مؤقتاً ، استجابةً لشفاعة حبيبته الإلهة «عِشتارِ» فكان تموز ، على ما تحكي الأسطورة ، يحيا في أول الربيع

كلّ عام ، فتزدهر الأرضُ وتنتعشُ الكائنات الحية ويغني الرعاة ، ثم يموتُ في آخر الصيف إيذاناً بذبولِ الحياة وموتها .

كما كانت عقيدةُ التناسخ عند الهنود ، محاولةً أخرى للفرارِ من فكرة الفناء الأبدي بالموت .

وأطال الفلاسفة الأقدمون التأمل في «الكون والفساد» فظهر القول بخلود الروح تعزية لهذا الإنسان عن بِلَى جَسَدِه .

على حين اتجه الشعراء وأصحابُ الفن ، إلى التماس العزاء من الأمل في بقاء ما يُخلقون ويبدعون ، بعد أن يرحلوا عن الدنيا إلى غيرِ عودةٍ أو مآب ...

* * *

وجاء عصرُ الرسالات الدينية المعروفة لنا ، والبشريةُ تناضل في سبيل استنقاذ إرادة الحياة من التدمير الذي يحيق بها إن هي استسلمت لليقين بالعدم ، فبشرتْها رسالات الدين بحياةٍ أخرى بعد الموت ، يرتهن مصير الإنسان فيها بما قدمتْ يداه في الحياة الدنيا .

والبشرى مصحوبة بنذير ...

وقد صكّ النذيرُ سمعَ عُبادِ الدنيا من عهدِ ما بعد الطوفان ، فاستهزأوا برسول الله إليهم :

« وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرةِ وأترفناهم في الحياة الدنيا ، ما هذا إلا بَشَرٌ مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشربُ مما تشربون . ولئن أطعتم بَشَراً مثلكم إنكم إذنْ لخاسرون . أيَعِدُكم

أنكم إذا متّم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مُخْرجون . هيهاتَ هيهات لما تُوعَدون . إن هي إلا حياتُنا الدنيا نموتُ ونحيا وما نحن بمبعوثين ».

(المؤمنون ٢٣ : ٣٧)

لكن البشرية المتدينة وجدتْ في البشرى بحياةٍ ثانية بعد الموت ، ما يغريها بمواصلة الكفاح ويقوي عزيمتها في الصراع بين الخير والشر ، وما يعطي حياتَها الأولى الفانية ، معنى وقيمة تستحق من أجلهما أن تُعاش .

• • •

ومضت الحياة لا تتوقف ..

وتابع الإنسان نضالَه الدائب من أجل انتصار الحياة .

واستراح المؤمن بالدين إلى رفضِ فكرة العدم التي تجعل وجودَه في الدنيا عبثاً عقيماً ومحنةً لا تطاق ، كما تجعل همومَ رحلته الدنيوية وتكاليفَها عبثاً باهظاً لا يُحتمل ، وتشدُّ بصرَه ووجدانه وفكره إلى الحفرة التي تنتظره في نهاية المطاف ، رِمّةً عِفنةً ينهشُها الدود ويعبث بها البِلَى ...

وعلى الأمل الموعود في اللقاء بالعالم الآخر ، هان على الأحياء منا أن يودعوا أحبابَهم في الحفرة الموحشة ، وأن يطيقوا بَعدهم محنةَ العيش إلى أن يحين الأجلُ المحتوم فيلتئم الشمل الممزق . ولولا هذا الرجاء لألقى بهم اليأسُ في جحيمٍ من العذاب لا نجاةَ منه إلا بالفرار إلى الموت .

• • •

ورسالات الدين قد ختمت بالإسلام الذي أعلن أنه مصدق لها . وقد استخلص الجوهر النقي للدين الواحد الحق ، مما شابه من رواسب عصور

السحر والوثنية وعبادة الأبطال . ففي كتاب الإسلام إذن ، نستطيع أن نلتمس الكلمة الأخيرة للدِّين في مصير هذا الإنسان الذي خاض معركته الطويلة المضنية من أجل الحياة ، وأعياه مع ذلك أن يتحدى قانونَ الموت القاهر النافذ ، الذي يسري على أفضل الرسل وأنبه العباقرة وأنبغ الأطباء وأشجع الأبطال وأعتى الجبابرة ، كما يسري على أضأل حشرة هينة هائمة في الكون الواسع العريض ...

• • •

والإقناعُ بحياة أخرى بعد الموت ، مسألة بالغة الصعوبة ، إذ يشق على الإنسان أن يتصور رجعةَ الحياةِ بعد أن تفنى الأجساد . والذين سبقونا إلى المقابر لم يعد منهم عائدٌ يحدثنا عما هناك ، والعلمُ عاجزٌ حتى اليوم عن اقتحام تلك المنطقة الغيبية المجهولة التي لا تزال خارجَ نطاق اختصاصه ، وكلُّ ما يُرجف به المرجفون من قولٍ بالعدَمِ المطلَق بعدَ الموت ، لا يعدو أن يكونَ في حساب العلم نفسِه رجْماً بالظن . وصدقت الآية القرآنية :

« وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموتُ ونحيا وما يُهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علمٍ إنْ هم إلا يظنون ».

(الجاثية : ٢٤)

وإذا كانت الأديان تَكِلُ المؤمنَ إلى إيمانه الذي يفرضُ عليه التصديقَ بما جاء به الرسل من أنباء الغيب الذي لا يعلمه إلا اللهُ ، فإن كتاب الإسلام الذي خُتمت به رسالات الدِّين إيذاناً بأن البشرية بلغت رشدها ، يقدر حاجة الإنسان إلى برهانٍ يقنعه بالحياة الأخرى ، ويتوقع جدلَه في هذه المسألة الغيبية : « وكان الإنسانُ أكثر شيء جدلا » .

• • •

وقد سجل القرآن ما أثير من جَدلٍ في البعث ، فتلا علينا شبهاتِ الذين أنكروه . ثم لم يدعْها تمر مكتفياً بأن يَكِلَ الإنسانَ إلى إيمانه ، بل حَرِصَ على أن يرد تلك الشبهات بالمنطق الذي تطمئن إليه الإنسانيةُ دون أن تحتاج فيه إلى أكثر مما تهيأ لها من إلهام الفطرة وهدى البصيرة ووسائل التأمل والنظر ، لكيلا يكون الاطمئنانُ وقفاً على زمانٍ بعينه أو مرتبطاً بظروفٍ وأحوال خاصة لا تتاح لكل إنسان .

وأحاول فيما يلي ، أن أتدبر ما جاء به البيان القرآني من جَدلٍ في ذلك المصير الذي هو مشغلةُ الفكر الإنساني منذ الأزل وإلى الأبد...

جَـدَلٌ في البَعْث

« أوَ لم ير الإنسانُ أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خَصيمٌ مُبين . وضربَ لنا مَثَلاً ونسيَ خَلْقَه قال من يُحيي العظامَ وهي رميم . قل يُحييها الذي أنشأها أوّلَ مَرّةٍ وهو بكلّ خلقٍ عليم » .

(سورة يس)

« يا أيها الناسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا له ، إن الذين تَدعُونَ من دونِ اللهِ لن يَخْلُقُوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يَسْلُبْهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعُفَ الطالبُ والمطلوب »

(سورة الحج)

يبدو أن البشرية على طول ما جاهدت مستبسلة للفرار من فكرة العدم ، لبثت على مدى الحقب والأدهار غيرَ مطمئنة إلى تلك المحاولات القديمة التي التمست بها الأمل في ألا يكون الموت هو النهاية الأخيرة لقصة الإنسان ...

وفي أعماقها ، كانت الحيرةُ تضنيها وهي تحتال بوسيلةٍ أو بأخرى على التدبير لما تعلّقت به من رجاءٍ في عودةِ الحياة بعد الموت ، بمثل تحنيطِ جثث الموتى وتزويد قبورهم بكل ما تعلقوا به من متاع دنياهم الفانية . ونحتِ تماثيلَ للبشرِ الفانين ، تقاوم الفناء ...

تبريراً لصراعها المرير في رحلة الدنيا ، وحمايةً لإرادة البقاء في الأحياء.

وما كان أحراها أن تتخلص من ذلك الهم الذي أرقها ، حين جاءتها رسالة الدين الأولى فمنحتْها الأملَ المرجو الذي ما تخلت عنه قط منذ بدأتْ حياتَها على هذه الأرض !

لكن بقيةً من الشك والحيرة ظلت تساورها وهي تُصغي إلى وعد الدين ، فتحرمها طمأنينةَ القلب وراحة العقل . وإذا كانت قد تطلعت إلى ما يمنحها هذه الطمأنينة ، فعُذْرُها أن الأملَ البعيدَ كان عزيزاً وغالياً ، بقدرِ ما كان تصوُّرُ تحققِه صعباً وعسيراً !

• • •

وتتابعت رسالات الدين تؤكد وجودَ الحياة الأخرى ، حتى جاء

الإسلام فلم يعد الإنسان ينتظر رسالة جديدة تُضيف كلمةً إلى ما جاء به الدين عن الحياة الأخرى .

ومن ثم حرص كتاب الإسلام على الاستجابة إلى ما ظلت البشريةُ تلتمسه من اقتناع بإمكانِ تحقُّق أملِها البعيد ، مقدراً ما في طبيعة الإنسان الرشيد الواعي ، من ميل إلى الجدل ، ومقرراً حقه في أن يطلب ما يطمئن به قلبُه ولو كان متعلقاً بمسألة غيبية .. وللإنسان أسوةٌ في إبراهيم عليه السلام ، وقد تلا علينا القرآن من حديثه :

« وإذ قال إبراهيم ربِّ أرني كيف تُحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكنْ ليطمئنَ قلبي » .

ولم يجرح هذا السؤال إيمان إبراهيم ، ولا حرمه شرف اصطفائه نبياً وخليلا ...

• • •

فماذا قدم كتاب الإسلام إلى الإنسان لكي يطمئن قلبُه إلى تحقق أمله في حياة أخرى تجعل لنضاله في الدنيا قيمة ومعنى ؟

أو بتعبير آخر :

ماذا قدم الدين في ختام رسالاته ليريح البشريةَ مما طالما أضناها من حيرة وقلق وهي تقاوم فكرةَ العدم وتتشبث بالرجاء في ألا يكون وجودنا في الدنيا عبثاً ينتهي بضجعة القبر ؟

لقد أثبت كتاب الإسلام ما كان من جدَل الأولين في البعث ، ورد عليه بالمنطق الذي يُثبته النظرُ الحرُّ والبصيرةُ المميزةُ والتأملُ الواعي ، دون أن يحتاج الإنسان فيه ، كما أشرت من قبل ، إلى ظروفِ

خاصة أو وسيلة من وسائل المعرفة الكسبية ، إن أتيحت لعددٍ من الناس في بيئة معينة أو عصر خاص ، فليست بحيث تتاح لكل إنسان على اختلاف المستويات الحضارية والعلمية .

وأقرب ما يلفتنا إليه كتاب الإسلام . ما نراه في الواقع المشهود من حياة الأرض بعد موتها ، وما نبصره بأعيننا من خروج الحي من الميت وخروج الميت من الحي ، توطئة للإقناع بأن الحياة بعد الموت ليست من المستحيل العقلي أو المستحيل العادي :

« ومن آياته أنك ترى الأرضَ خاشعةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزتْ وربَتْ ، إن الذي أحياها لَمحيي الموتى إنه على كلِّ شيءٍ قدير » .

(فصلت : ٣٩)

« يُخرِج الحيَّ من الميتِ ويُخرج الميتَ من الحيِّ ويحيي الأرضَ بعد موتها وكذلك تُخرَجون » .

(الروم : ١٩)

(وانظر معها آيات : البقرة ١٦٤ ، النحل ٦٥ ، الجاثية ٥ ، فاطر ٩ ، الفرقان ٤٩ ، العنكبوت ٦٣ ، يس ٣٣ ، ق ١١ ، وكذلك آيات : آل عمران ٢٧ ، الأنعام ٩٥ ، يونس ١٩ ، الحديد ١٧)

• • •

وليس هذا فحسب ، ما يقدمه الدينُ في كتاب الإسلام إلى الإنسان ليطمئن قلبه إلى إمكان البعث ، بل إنه كذلك يضع أمام بصره وبصيرته وحسِّه ووجدانه ، آيةَ القدرة الإلهية المعجزة في خلقِ الإنسان أولَ مرة ، فلن يُعييَها أن تعيدَه مرةً أخرى ، وذلك أهْوَنُ .

وتوشك الآياتُ القرآنية في خلق الإنسان أن تكون في الغالب الأعم موجهة إلى الاستدلال بهذه لنشأة الأولى على إمكان النشأة الأخرى .

ومن هذه الآيات ، ما يأتي في سياق الرد على الكافرين في هزئهم بنذير الآخرة :

« بل عجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم فقال الكافرون هذا شيءٌ عجيب . أئذا متنا وكنا تراباً ، ذلك رجع بعيد ...»

« أفعَيِينا بالخلْقِ الأوّلِ ، بل هم في لَبْسٍ من خلْقٍ جديد »

(ق ٣ : ١٥)

« إنهم كانوا قبل ذلك مُترَفين . وكانوا يُصرّوُن على الحِنْثِ العظيم . وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون . أوَ آباؤنا الأولون ... » ؟

« ولقد علمتم النشأةَ الأولى فلولا تذكّرون ».

(الواقعة ٤٥ : ٦٢)

« وقالوا أئذا كنا عظاماً ورُفاتاً أئنا لمبعوثون خلْقاً جديداً . قل كونوا حجارةً أو حديداً . أو خلقاً مما يكبُرُ في صدورِكم فسيقولون مَن يُعيدُنا ، قل الذي فطركم أولَ مرة ...»

(الإسراء : ٤٩)

• • •

ومنها ما يأتي دفعاً لحيرة الإنسان فيما يشغل بالَه من أمر تلك الحياةِ الآخرة التي أكدتها رسالات الدين ، وما يجهده من التفكير في تصور إمكانِ تحقُّقِها :

« ويقولُ الإنسانُ أئذا ما متُّ لسوف أُخْرَجُ حيّاً . أوَ لا يذكرُ الإنسانُ أنا خلقناه من قبلُ ولم يك شيئاً » ؟

(مريم : ٦٦)

« أيَحسَبُ الإنسانُ أن لن نجمعَ عظامَه . بلى قادرين على أن أن نُسَوِّيَ بنانَه » .

« أيحسب الإنسانُ أن يترُك سُدىً . ألم يكُ نطفةً من مَنِيٍّ يُمْنَى . ثم كان عَلَقةً فخَلَقَ فسوَّى . فجعل منه الزوجين الذكرَ والأنثى . أليس ذلك بقادرٍ على أن يحييَ الموتى » ؟

(القيامة)

« فلينظر الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ . خلق من ماءٍ دافقٍ . يخرجُ من بين الصُّلْبِ والترائب . إنه على رجعِه لقادر »

(الطارق)

« أو لم يرَ الإنسانُ أنا خلقناه من نُطفَةٍ فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقَه قال مَن يُحيي العظامَ وهي رميم . قل يُحييها الذي أنشأها أولَ مرةٍ وهو بكل خلق عليم ».

(يس : ٧٧)

وكلها آيات مكية .

ومعها من العهد المكي كذلك ، آيات : الروم ٦ ، ٢٧ . والسجدة ٦ ، ١٠ . والمؤمنون ٣٣ ، ٨١ . والصافات ١٦ ، ٥٣ .

وبعدها في العهد المدني ، نزلت آيةُ الحج ، والخطابُ فيها للناسِ كـــافّةً :

« يا أيها الناسُ إن كنتم في ريبٍ من البعث فإنا خلقناكم من

تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مُخَلَّقَة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونُقِرُّ في الأرحام ما نشاءُ إلى أجل مُسَمّى ، ثم نُخرجكم طِفلاً ثم لتبلغوا أشُدَّكم ومنكم مَن يُتوفّى ومنكم مَن يُرَدُّ إلى أرذلِ العمرِ لكيلا يعلمَ من بعدِ علمٍ شيئاً ، وترى الأرضَ هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزتْ وربَتْ وأنبتتْ من كلِّ زوجٍ بهيج » — ٥

بهذا المنطقِ ، يقدم البيانُ القرآني إلى الإنسان الآياتِ الشاهدة على أن الذي خلقه أولَ مرة ، قادرٌ على أن يعيد خلقَه مرة أخرى ، فإذا شقَّ على الإنسان أن يتصوَّر حياةً بعد موتٍ ، فليتأمل في الكونِ يرَ شواهدَ من الواقع الحسي ، في الأرضِ تحيا بعد موت ، وفي الكائنات الحية تخرج مما يبدو لنا هامداً ميتاً .

• • •

لكن هذه الآيات إذا أقنعت الإنسانيةَ المتدينةَ التي تؤمن بخالقها ، فقد بقي هناك مجالٌ لما يثير الملحدون من جَدلٍ في أن اللهَ هو الذي خلق الإنسان أولَ مرة !

ولا يسكتُ القرآن عن هذا ، بل يقدم برهانَه الذي يجلو الريبةَ ويُفحمُ المنكرَ .

والسؤال الذي عرضه كتابُ الإسلام بصيغة التحدي لكلِّ منكرٍ أو مرتابٍ ، هو :

« أم خُلقوا من غيرِ شيء أم هم الخالقون » ؟

ثم نزلت آية الحج المدنية ، فضربت للناس المثلَ الصادع وساقتْ البرهان المفحم :

« يا أيها الناسُ ضُرِب مَثَلٌ فاستمعوا له ، إن الذين تَدْعُون من دونِ اللهِ لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبْهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعُف الطالبُ والمطلوب ».

ولقد مضى على الناس منذ ضَرَبَ لهم كتابُ الإسلام هذا المثلَ ، أكثر من أربعة عشر قرناً ، ارتاد فيها الإنسانُ من مجهول الآفاق ما ارتاد ، وتابع نضالَه الباهر العجيبَ في كشف ألغاز الوجود وأسرار الكون ، إلى أن اقتحم الفضاءَ . ووصَلَ إلى القمر وتجوَّل على سطحه .

وما يزال المثل القرآني يتحدى كلَّ جبروتِ الغزاة وعبقريّةِ العلماء .

وما يزال على الذين غرهم الغرورُ بما حقق إنسانُ العصر الحديث من معجزات العلم ، أن ينسخوا ذلك المثلَ ، بأن يجتمعوا فيخلقوا ذباباً ، أو يستنقذوا شيئاً سلبتهم إياه هذه الحشرة الضئيلة التي تقتلها ذرةٌ من هواء مشبّع بمبيدِ الحشرات ، وتستطيع مع ذلك أن تسلبَ مخترِعَ المبيدِ حياتَه ، بِلَمْسةٍ هَيِّنَةٍ خاطفة تحمِلُ إليه جرثومة داء مميت .

• • •

سيقولون : وماذا عن الجهود الجادة المبذولة لاستنقاذ الحياةِ من الموت ؟ ولهذا حديث خاص يلي ...

العَرَضُ .. وَالجَوْهَر

« فأمّا الزبَدُ فيذهبُ جُفاءً وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرضِ ، كذلك يضربُ اللهُ الأمثالَ »

(سورة الرعد)

ماذا عن الجهود الجادة المبذولة لمحاولة استنقاذ الحياة من الموت ؟

ليست المحاولة في ذاتها جديدة ، فالبشرية من قديم تحاول أن تطيل في أمد الرحلة الدنيوية بكل ما أطاقت من جهد وما أسعفها من وسائل .

وقد احتالت على ذلك في عصور بدائيتها بالضراعة إلى آلهتها وتقديم القرابين إليها . حتى إذا بزغ عصرُ الإنسان ، حلَّ الطبُّ والعلاجُ محلَّ السحرِ والرُّقَى ، واستُبدل الدواءُ بالتعاويذ والقرابين . وحقق الإنسانُ انتصاره الرائع في هذا المجال بحيث أمكنه أن يهتديَ إلى سرِّ كثيرٍ من الأمراض المستعصية وأن يكتشف دواءً لها .

ويغريه اليومَ الأملُ في مزيدٍ من النصر ، بعد أن توصل إلى اختراع «قطع غيار» لبعضِ ما يتلف من أجهزة الجسم البشري . والأنباء تحمل إلينا بين حين وآخر ، عجيبَ المحاولات المبذولة في هذا الميدان ، ولعل من أعجبها تجارب عمليات نقل الأعين والقلوب والكلى ، ثم تلك المحاولات التي جرتْ في روسيا لإنقاذ عالمها الذري الكبير من موت محقق ، وقد وُصِفَتْ هذه المحاولةُ بأنها انتصارٌ على الموت .

والواقع أن ما يبدو لنا انتصاراً على الموت ، ليس في حقيقة الأمر سوى إنقاذ للحياة حتى يحين الأجل المحتوم .. وعندئذ لا يجدي طبٌّ ولا دواء ، كما لم تُجد من قبل ضراعةٌ وقربان ، ولا سحرٌ ورُقْية . ولا تستطيع جهودُ أطباءِ العالم مجتمعين ، أن تستبقي الحياةَ لحظةً واحدة إذا ما جاء الأجل :

« فإذا جاء أجلُهم لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون ».

ولنا أن نعد كلَّ تقدم في الطبِّ والعلاج انتصاراً للحياةِ ، بمعنى أنه يحميها من عذاب الألم ومذلةِ الضعف طالما بقيتْ في العمر بقيةٌ لم تستنفد ؛ وبمعنى أنه يستبقي لهذا الإنسان طاقتَه الحيوية ما عاش .

وليس بمستبعد أن تثمر الجهود العلمية والطبية ، فيتضاعف عُمرُ الإنسانِ ، وليس بمستبعدٍ كذلك أن تصيرَ الشيخوخةُ مَرَضاً يعالَجُ فيحفظ للإنسان في أرذلِ مراحلِ العمر قدراً من الحيوية يستطيع به أن يمارسَ الحياة ويتذوقَها .

لكن ... هل يعني انتصارُ الحياة ، الانتصارَ على الموت ؟

في مسمعي صدى باقٍ من بيت شاعرنا الجاهليِّ «طرفةَ بنِ العبد» :

أرى الموتَ أعدادَ النفوسِ ولا أرى
بعيداً غداً ، ما أقربَ اليومَ من غدِ

فليت شعري هل يستطيع عباقرة عصر الفضاء أن ينقضوا تلك المعادلة الرهيبة : « الموت : أعداد النفوس » التي قالها شاعرنا القديم بفطرتِه البدوية المرهفة ؟

هيهات ...

• • •

ولم يكن الدينُ في حاجة إلى أن يقنع الإنسان بحقيقة الموتِ الصارمة، ومع ذلك نرى كتاب الإسلام يُلِحُّ في تقريرها ، وكأنه بذلك يقدر غفلةَ الإنسان في نشوةِ الحياة الدافقة وضجيج صراعِها الصاخب ، ليكونَ التذكيرُ بالموت كَبْحاً لغرورِ الإنسان ، وردْعاً له عن الشر والطغيان ، وتذكرةً له بالحياة التي يريد له الدينُ أن يتزود لها :

«وما تدري نفسٌ ماذا تكسِبُ غداً ، وما تدري نفسٌ بأيِّ أرض تموت»

«أينما تكونوا يُدرككُم الموتُ ولو كنتم في بروجٍ مُشيّدة»

والملحوظ في سياق آيات التذكير بالموت ، أن القرآن الكريم يعمد إلى التهوين من شأن الحياة الدنيا، كيلا يغترَّ بها الإنسان فيطغى ويضل طريقَه إلى الحق والخير ...

وأكثر ما تأتي الآيات في هوانِ الدنيا وفنائها ، مقترنةً بالحديثِ عن الحياة الآخرة وبقائها :

«كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ وإنما تُوفّون أجوركم يومَ القيامةِ ، فمن زُحزِحَ عن النارِ وأُدخل الجنةَ فقد فاز ، وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغرور » .

« قل إن الموتَ الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تُردُّون إلى عالمِ الغيبِ والشهادةِ فينبئكم بما كنتم تعملون ».

وهذا الاقتران يبيح لنا أن نقول :

إن كتاب الإسلام لا يشق على الإنسانية بالتزهيد في الدنيا والتذكير بفنائها ، لكي ترفضها يأساً منها ، وإنما يرى للإنسانية أن تأخذَ من حتمية الموت عبرةً تحميها من الأثرةِ والشر والتهالك على المتاع الدنيوي الزائل ، كما تتخذ من إيمانها بالحياةِ الآخرة ما يعصمها من محنةِ العدم التي روَّعت البشرية منذ بدأت حياتَها على الأرض . فبقدر ما يلح القرآن الكريم في التذكير بالموت وفناءِ الحياة الدنيا ، يلح كذلك في مقاومة فكرة العدم ، وفي ترسيخ الإيمان بحيـــاةٍ أخرى باقية. يرتهنُ

مصيرُ الإنسانِ فيها بما قدَّم في دنياه ، تأصيلاً لدعوة الدين إلى الحق والخير والعمل الصالح .

* * *

هنا نعود على بدء ، فنذكر ما هدى إليه الاستقراء من الفرق الواضح في الدلالة بين البشر والإنسان في البيان القرآني . فالبشريةُ فيه هي هذه الآدمية التي تأكل الطعام وتمشي في الأسواق ، وتجوز أعراضُها المادية على كلِّ أفرادِها على وجه المماثلة .

وليس الأمر كذلك في «الإنسان» حيث يؤذن البيان القرآني بأنه الذي يحتمل تبعاتِ الأمانة والعهد والوصية وأعباء التكليف والمسئولية والمكابدة ، وهو الذي يختص بالعلم والعقل والبيان . وفي كل هذا ، يتفاوت أفراد الإنسانية بمقدارِ ما يتحملون من عبئها وتبعاتها ، وما يكابدون من مشاق المجاهدة في سبيل تحقيق مثلها الأعلى . فلا يستوي الخبيث والطيب ولا المؤمن والفاسق ، ولا العالم والجاهل ، ولا المجاهد والقاعد ، كما لا تستوي الحسنة والسيئة ولا الظلمات والنور ...

* * *

فهل لنا إذن ، أن نلمح من هذا التمييز الواضح الصريح بين البشر والإنسان بعضَ السرِّ المحجبِ الذي شغل الإنسانَ منذ كان ، فندرك أن رحلتنا العابرة على الجسرِ ما بين الحياة والموت ، ليست في البيان القرآني إلا ابتلاء لهذا الإنسان الذي تصدى لحمل الأمانة وقد أشفقت منهـــا السموات والجبال والأرض وأعفاها التسخيرُ من تبعة المسئولية ؟

وموضوع الابتلاء ، فيما يسمح لي الاستقراء أن أطمئن إليه ، هو مكابدة السعي لتحقيق الوجود الأمثل للإنسان ، واقتحام العقبة لمشارفة آفاق

الحق والخير ، والمجاهدة الباسلة لمقاومة نوازع الأثرة والشر وجواذب الفتنة بمغريات الدنيا وعَرَضِها الزائل الفاني :

«الذي خلقَ الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ».

(الملك : ٢)

«وما جعلنا لبشر من قبلِك الخلدَ أفئن متَّ فهم الخالدون . كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ ونبلوكم بالشرِّ والخيرِ فتنةً وإلينا تُرجَعون ».

(الأنبياء : ٣٥)

«إنا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لنبلوَهم أيهم أحسنُ عملا».

(الكهف : ٧)

«إنا خلقنا الإنسانَ من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً . إنا هديناه السبيلَ إما شاكراً وإما كفوراً ».

(الإنسان : ٣)

(وانظر معها آيات : الأعراف ١٦٨ ، هود ٢٧ ، النحل ٩٢ ، الدخان ٣٣ ، محمد ٣١).

• • •

وبهذا الابتلاء لا تعود رحلةُ الإنسان العابرة في الدنيا عبثاً باطلاً ، بل يموت الآدمي البشر وتبقى القيم العليا والكلمة الطيبة والعمل الصالح ، ذخيرةً للإنسانية على مسار الزمن ، ومناراتٍ هاديةً لها على الطريق ، فيتحقق للإنسان من الخلود بها ما لا يتحقق له من تلك المحاولات القديمة كتحنيط الجثث ونحت التماثيل وإقامة النصب التذكارية ، إذ مهما تبلغ المهارةُ في التحنيط فمآل الجثثِ حتماً إلى تعفنٍ وبِلَى ، ومهما

تكن صلابةُ الحجر الذي يُنحتُ منه التمثال ، فلن يتعَصّى على أفاعيل الزمن .

والقيمُ الإنسانية وحدَها هي التي تخلد وتبقى :

«فأما الزبَدُ فيذهب جُفاءً ، وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرض ... »

• • •

ومن هنا ، يتميز ما هو فانٍ مِن البشر ، وما هو باقٍ من الإنسان .
ولا تزال الإنسانية تجد فيما خلّف لها الصفوةُ من بنيها على تتابع الأجيال ، ما تُضيفه إلى رصيدها من ذخيرة الطاقة على استمرارِ الحياة ، وما تتقدم به من خُطاها على مدارج الرّقي .

وإذا كانت الإنسانية قد فزعت من فكرة العدم وتشبثتْ بأمل البقاء بعد الموت ، فإن الدينَ يمنحها هذا الأملَ المرجُوَّ . مع توجيهِ كلِّ طاقاتها إلى المقاومة الباسلة في معركة الصراع الأبدي بين الخير والشر وبين الحق والباطل ، وإلى المجاهدة الشاقة في سبيل تحقيق الوجود الأسمى لهذا الإنسان . الذي أمر اللهُ ملائكته أن يسجدوا لأبيه آدم !

• • •

ترى هل يكون للإنسان في هذا بعضُ العزاء عن مأساة بِلَى الأجساد وانتهاكِ الرمم ؟ تلك المأساة التي روّعتْ شاعري «أبا العلاء» فاختلط في سمعِه الشدوُ بالنواح ، ووجد أن حزناً في ساعةِ الموت أضعافُ سرورٍ في ساعة الميلاد :

صاحِ هذي قبورُنا تملأ الرحـ ـب فأين القبورُ من عهد عادِ
خففِ الوطءَ ماأظنُّ أديمَ الأر ضِ إلا من هذه الأجسادِ

وقبيحٌ بنا وإن قدُمَ العهـ ... ـدُ . هوانُ الآباءِ والأجدادِ

. . . .

رُبَّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً ... ضاحكٍ من تزاحُمِ الأضداد
ودفينٍ على بقايا دفين ... في طويلِ الأزمانِ والآباد

(سقط الزند)

• • •

إذا الحيُّ ألبسَ أكفانَه ... فقد فَنِيَ اللبسُ واللابسُ
وَيَبْلَى المُحيّا فلا ضاحكٌ ... إذا سَرَّ دهرٌ ولا عابسُ
يجاور قوماً أجادوا العظات ... وما فيهم أحدٌ نابس !

(اللزوميات)

«يا جدَثُ ، بعد موتي . هل تسمع ندائي وصوتي ؟ يا أرضُ . لا قرضَ عندكِ ولا فرض ، أُودِعْتِ المالَ فرددتِه سالماً ، والخليلَ فأكلتِه راغماً ، ليتكِ أكلتِ المالَ ورددتِ الخليل ...

«وصيح بالأرضِ اقبلي رَهْنَكِ وبالنزيلِ فاغْدِري ! وحِيزَ المالُ ونُسِيَ العَهْدُ وانتوى عن الإنسان أنيسُه ذو الودِّ القديم ...

«يا معشرَ أهلِنا الصالحين ، بئس القومُ نحن ! لم نُوفكم الواجبَ من الوفاء : شربنا بعدكم الباردَ ولبِسْنا ناعمَ اللباسِ ، وأظلّتْنا الجُدُرُ وأفنيةُ الدور ، لو كنا أهلَ حِفاظٍ عفْنَا بعدكم النُّطَفَ العِذابَ...»

(الفصول والغايات)

عَالَمُ الرُّوح

« ويسألونكَ عن الروحِ ، قل الروحُ من أمر ربِّي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ».

(سورة الإسراء)

لم يفت الإنسانَ من قديم ، أن يفرق بين عنصره المادي مُمَثَّلاً في الجسدِ ، وعنصرهِ المعنوي ممثلاً في الروح . وقد ربط الحياةَ والموتَ بهذه الروح الذي تمنحه الحياةَ ، فكانت الروحُ تعني النفسَ ، من حيثَ لا بقاءَ لنفسٍ بغير روح .

وشُغِلَ الفلاسفةُ والمفكرون من قديم الزمان بأمرِ هذه الروح . وقلما نلحظ في كلامهم عنها أنهم يفرقون بينها وبين النفس ، فهم يذكرون الروحَ ويعنون بها النفسَ ، كما يذكرون النفسَ ويعنون بها الروح . وقد أعياهم أن يصلوا إلى كنهها ، وإن عرفوا من ظواهرها أنها سِرُّ الحياة ، متى فارقت الجسدَ فسَدَ ومات ..

ومن حيث كانت سرَّ الحياةِ ، انتفى عند أكثرهم القولُ بموتِها وفنائِها ، لأن ما به تكونُ الحياةُ لا يفنى ولا يموت ...

أما من أين جاءت ، وإلى أين تمضي ، فذلك ما تحيرت فيه العقولُ والأفكار ، وتاهت الظنونُ وضلّت الأوهام .

وأكثر الفلاسفة اليونانيين ، على أن الروح عنصرٌ لطيفٌ مختلف عن البدن ، متى فارقته عادتْ إلى عالمها العلوي « سابحةً في عوالمِ الفلكِ غيرَ قابلة للموت » كما قال «فيثاغورس» لديوجينس . وعند «أفلاطون» أنها جوهرُ الإنسان ، وهي ذاتٌ مستقلة عن البدن : فليس جزءاً من ماهيتها ولا يدخل في تعريفها . وهي تهبط مُكرَهةً من عالم عُلْوي

إلى أحدِ الأجسام ، ومن الواجب أن تعمل ما استطاعت على التطهر من الأدران التي تلحقها بسبب وجودِها في سجن الجسد . والموتُ هو سبيلُ الخلاص لها . والنفوسُ خالدة لا تموت .

و « أرسطو » يراها كذلك مستقلة عن الجسم ، ذات وجود سابقٍ عليه ، وتخلُد بعده لا تموت .

ويقول أفلوطين : « ربما خلوتُ بنفسي وخلعتُ بدني وصرتُ كأني جوهرٌ بلا بدنٍ ، فأكون داخلاً في ذاتي خارجاً عن جميع الأشياء ، فأرى فيها من الحسن والبهاء ما أبقى له متعجباً مبهوراً ، فأعلم أني جزء من أجزاء العالم الأعلى الشريف الفاضل » [1] .

• • •

وفي العربية ، تأتي الروح مراداً بها : ما تقوم به حياةُ الأنفس .أما النفس فتُطلَق على ذات الإنسان ، مادةً ومعنى ، فيقال : جاء فلان نفسُه . كما تطلق على العنصرِ المعنوي منه ، فيقال : علم الله ما في نفسي . وتأتي أحياناً بمعنى الروح فيقال : خرجتْ نَفْسُه ، إذا مات ، ملحوظاً فيها ما ليس بماديٍّ من كيانه .

والقرآن الكريم يفرّق بين الروح والنفس ، فليستا فيه مترادفتين .

الروح تأتي فيه إحدى وعشرين مرة ، منها ما يعني أمين الوحي :

«وإنه لتنزيل ربِّ العالمين . نزل به الروحُ الأمينُ . على قلبِك لتكون من المنذرين . بلسانٍ عربي مبين»

(الشعراء : ١٩٣)

---

١ للأستاذ السيد « علي نصوح الطاهر » جهد قيم في استقراء « أقوال الفلاسفة ، القدامى والمتأخرين ، في النفس » راجعه في كتابه « الروح الخالدة » ص ٣٧ وما بعدها ، ط الأردن ، ١٩٦٠ .

«قل نَزَّله روحُ القُدس مِن ربِّك بالحقِّ ليثبتَ الذين آمنوا وهدىً وبشرى للمسلمين »

(النحل : ١٠٢)

ومنها ما يتصل بموضوعنا ، إذ تأتي الروحُ فيه بمعنى السرِّ الإلهي الذي تصير به المادة الآدمية كائناً حيّاً .

ففي خلقِ آدم ، أبي البشر ، يقول تعالى للملائكة :« فإذا سوّيتُه ونفختُ فيه من روُحي فَقَعُوا له ساجدين ».

(الحجر : ٢٩ ، ص : ٧٢)

وفي خلقِ الجنين الإنساني ، بعامة ، يقول سبحانه عن بني آدم :

« ثم جعلَ نسلَه من سلالة من ماء مهين . ثم سوّاه ونفخ فيه من روُحه وجعل لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ ، قليلاً ما تشكرون ».

(السجدة : ٩)

والروحُ هي كذلك السرُّ الإلهي الذي تجلى في مريم المصطفاة ، فحملتْ جنينَها الحي :

«ومريمَ ابنةَ عِمرانَ التي أحصنتْ فَرْجَها فنفخنا فيه من روحِنا وصدَّقتْ بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ».

(التحريم : ١٢)

وهذه الروحُ التي من أمر الله ، لا يدري كنهها غيره ، سبحانه وتعالى :

«ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

(الإسراء : ٨٥)

• • •

أما النفس فتأتي في القرآن الكريم مفردة في مائة وست عشرة آية ، وجمعاً بصيغة نفوس مرتين ، وبصيغة أنفس مائة وثلاثاً وخمسين مرة .

نتدبر سياقها جميعاً فنلحظ أنها تعني الذاتَ بعامةٍ ، أي بعنصريها الماديِّ والمعنوي . ومن ثم يجوز عليها الموتُ والقتل :

« وما كان لنفسٍ أن تموتَ إلا بإذن الله »

(آل عمران : ١٤٥)

« كلُّ نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يومَ القيامة .

(آل عمران : ١٨٥)

« من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتَلَ نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناسَ جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً »..

(المائدة : ٣٢)

« وكتبنا عليهم فيها أن النفسَ بالنفسِ والعينَ بالعينِ والأنفَ بالأنفِ والأذنَ بالأذنِ والسنَّ بالسنِّ والجروحَ قِصاصٌ »

(المائدة : ٤٥)

« الله يتوفى الأنفُسَ حين موتِها »

(الزمر : ٤٢)

« ولا تقتلوا النفسَ التي حرَّم اللهُ إلا بالحقِّ »

(الأنعام : ١٥١)

« قال أقتلتَ نفساً زكيّةً بغيرِ نفسٍ لقد جئتَ شيئا نكرا »

(الكهف : ٧٤)

« قال ربِّ إني قتلتُ منهم نَفْساً فأخافُ أن يَقْتُلونِ ».

(القصص : ١٩)

وبهذا الإطلاق ، لا تكون النفسُ مرادفةً للروح التي هي سرُّ الحياة ، لكنها كذلك ليست مرادفة للجسد ، بل لعلها أقربُ إلى أن تَعْني الضميرَ أو العنصر المعنويَّ من الإنسان ، بشاهدٍ من صريح النصِّ في مثل آيات :

« لا أُقسِمُ بيومِ القيامة . ولا أُقسِمُ بالنفسِ اللوَّامة »
(القيامة : ٢)

« بل الإنسانُ على نفسِه بصيرةٌ »
(القيامة : ١٤)

« وما أبرىءُ نفسي إن النفسَ لأمّارةٌ بالسوء إلا ما رَحِمَ ربي »
(يوسف : ٥٣)

« ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من اللهِ من شيءٍ إلا حاجةً في نفسِ يعقوبَ قضاها »...
(يوسف : ٦٨)

« وما تدري نفسٌ ماذا تكسِبُ غداً وما تدري نفسٌ بأي أرض تموت »
(لقمان : ٣٤)

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ ولتنظرْ نفسٌ ما قدمتْ لِغَدٍ »
(الحشر : ١٨)

« فلعلك باخعٌ نفسَك على آثارِهم إنْ لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ».
(الكهف : ٦)

« فلا تذهبْ نفسُك عليهم حسراتٍ »
(فاطر : ٨)

« وتخفي في نفسِك ما اللهُ مبديه ، وتخشَى الناسَ واللهُ أحق أن تخشـــاه »
(الأحزاب : ٣٧)

« فأسّرها يوسفُ في نفسِه ولم يُبْدِها لهم »

(يوسف : ٧٧)

« وكذلك سوّلت لي نفسي »

(طه : ٩٦)

« قال بل سَوّلَتْ لكم أنفسُكم أمراً فصبرٌ جميل »

(يوسف : ٨٣)

« يُخفون في أنفسِهم ما لا يُبدون لك »

(آل عمران : ١٥٤)

« قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ، إن كنتُ قلتُه فقد علمتَه ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسِك إنك أنت علام الغيوب »

(المائدة : ١١٦)

« وضاقتْ عليهم أنفسُهم وظنوا أن لا ملجأ من اللهِ إلا إليه »

(التوبة : ١١٨)

والنفس في القرآن الكريم هي التي توصَف بالطمأنينة والرضى (الفجر ٢٧) ومنها يكون التضرعُ والخيفة (الأعراف ٢٠٥) والاستيقانُ (النمل ١٤٦) والإيثارُ (الحشر ٩) والخداعُ (البقرة ٩) والحسدُ (البقرة ١٠٩) والمقتُ (غافر ١٠) والوسوسةُ (ق ١٦).

ويتعلق بها الإيمانُ والكفرُ ، والهدى والضلال (الإسراء ١٥ ، الأنعام ١٠٤ ، يونس ١٠٨ ، الزمر ٤١ ، سبأ ٥٠ ، النمل ٩٢ ...).

والخيانةُ والفجورُ والتقوى (النساء ١٠٧ ، الشمس ٧).

وهي التي تحتمل كذلك التكليفَ (الأنعام ١٥٢ ، الطلاق ٧) كما تتلقى الجزاء ثواباً أو عقاباً :

« يا أيتها النفسُ المطمئنة . ارجعي إلى ربِّك راضيةً مرضيةً ، فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي »

(الفجر : ٢٧)

« وهم فيما اشتهت أنفسُهم خالدون » (الانبياء : ١٠٢)

ومعها آيات : فصلت ٣١ ، والزخرف ، ٧١ ، والنحل ٥٧ والطور ٢٢ .

« وما تقدموا لأنفسِكم من خيرٍ تجدوه عند الله ».

(المزمل : ٢٠)

« ومن خفّت موازينُه فأولئك الذين خسروا أنفسَهم »

(الأعراف : ٩)

« اقرأ كتابَك كفى بنفسِك اليومَ عليك حسيباً ».

(الإسراء : ١٤)

ولا يستعمل القرآنُ الكريم الجسدَ أو الجسمَ في سياق الحديث عن الجزاء أو الحساب ، فلم يأت لفظ الجسد فيه إلا أربعَ مرات بمعنى الصُّوَرِ والشخوصِ :

« واتخذ قومُ موسى من بعدِه من حُلِيِّهم عِجْلاً جسداً له خُوَارٌ

(الأعراف : ١٤٨ ، وطه : ٨٨)

« وما جعلناهم جَسَداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ».

(الأنبياء : ٨)

« ولقد فتنّا سليمانَ وألقينا على كرسيِّه جَسَداً ثم أناب ».

(ص : ٣٤)

كما لم يأتِ الجسمُ في القرآن كله إلا مرتين ، إحداهما بصيغة المفرد في الحديث عن طالوت :

« قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطةً في العلم والجسم ».
(البقرة : ٢٤٧)

والأخرى بصيغة الجمع ، في المنافقين :

« وإذا رأيتهم تُعجبك أجسامُهم وإن يقولوا تسمعْ لقولهم كأنهم خُشُبٌ مُسَنَدَةٌ يَحسَبون كلَّ صيحةٍ عليهم ، هم العدوُ فاحذرْهم ، قاتلهم اللهُ أني يُؤفَكون ».
(المنافقون : ٤)

فكأن تحاشي القرآن استعمالَ الجسدِ أو الجسم في الحديثِ عن الآخرة ، إيذانٌ بأن الثوابَ أو العقاب لا يتعلقان بالجسم وحده دون النفس .

« يا أيتها النفسُ المطمئنة ، ارجعي إلى ربّك راضيةً مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي »

* * *

ويبدو أن هذا الملحظ في ندرة استعمال القرآن للفظ الجسم وحديثه عن الجسد ، هو ما جعل كلمة «النفس» تدخل في الفكر الإسلامي ، بمعنى الروح . وكأنهم فهموا من كونها تموت أو تقتل ، تعطُّلَ الحياةَ وتوقفَها . والمعاجم اللغوية تورد الروحَ بين معاني النفس . وقد تحيّر الفلاسفة المسلمون في كُنه النفس ، بمعنى الروح ، واشتهرت فيها عينية « الشيخ الرئيس ابن سينا » — القرن ٤ هـ — الذي تمثل فيها النفسَ قد

هبطت من العالم العلوي إلى الجسد فمنحتْه الحياة ، وإن شقيتْ بسجنِها في هذا القفصِ . وبدت له أشبهَ ببرقٍ يتألق ثم ينطوي فكأنه لم يلمع ، ووقف من بعد ذلك حائراً لا يدري فيم كان هبوطُها ، وفيم فراقُها ...

فهل من يَدري ؟

هبطتْ إليك من المحلِّ الأرفع ... ورقاءُ ذاتُ تعزُّزٍ وتمنُّعِ[1]
محجوبة عن كلِّ مقلةِ عارف ... وهي التي سفرتْ ولم تتبرقع
وصلتْ على كُرهٍ إليك وربما ... كرِهتْ فراقَك وهي ذاتُ تفجع
أنِفتْ وما أنِستْ فلما واصلتْ ... أَلِفتْ مجاورةَ الخرابِ البلقعِ
وأظنُّها نسيتْ عهوداً بالحِمَى ... ومنازلاً بِفراقِها لم تَقنعِ
حتى إذا اتصلتْ بهاءِ هُبوطِها ... عن ميمِ مَركزِها بذاتِ الأجرعِ
علقتْ بها ثاء الثقيل فأصبحت ... بين المعالم والطلولِ الخُضَّعِ
تبكي إذا ذكرتْ عهودا بالحِمى ... بمدامعٍ تَهمى ولم تتقطعِ
وتظل ساجعةً على الدَمَنِ التي ... درَستْ بتكرارِ الرياحِ الأربَعِ
إذ عاقَها الشَرَكُ الكثيفُ وصَدَّها ... قفصٌ عن الأوْجِ الفسيحِ المربعِ
حتى إذا قرُبَ المسيرُ عن الحِمَى ... ودنا الرحيلُ إلى الفضاءِ الأوسعِ
وغدَتْ مفارِقةً لكلِّ مخلَّفٍ ... عنها حليفِ التربِ غيرَ مشيعِ

---

١ من شروح عينية ابن سينا : شرح السيد نعمة الله الجزائري الشوشتري (ط طهران ١٩٠٤) ولعل أحدث شروحها ، بحث فلسفي موضوعه نظرات في عينية الشيخ الرئيس ، وعنوانه « الروح الخالدة » للسيد الأستاذ علي نصوح الطاهر (ط الأردن ١٩٦٠) وله قصيدة عينية ، تشطيراً لقصيدة ابن سينا في النفس ، وقصيدة أخرى جواباً عن سؤال ابن سينا رد عليه فيها . ومعها معارضتا أحمد شوقي وعادل الغضبان .

سجعتْ وقد كُشِفَ الغِطاءُ فأبصرت ما ليس يُدرَكُ بالعيونِ الهجعِ
وغدتْ تُغرِّدُ فوق ذروة شاهقٍ والعلمُ يرفعُ كلَّ من لم يرفعِ
فلأيِّ شيءٍ أُهبطتْ من شامخ عالٍ إلى قعرِ الحضيضِ الأوضعِ
إن كان أهبطها الإلهُ لحكمةٍ طُوِيَتْ على الفذِّ اللبيبِ الأروعِ
فهبوطُها إن كان ضربةَ لازبٍ لتعودَ سامعةً لما لم تسمعِ
وتعودَ عالمةً بكلِّ خفيةٍ في العالمين ، فخرقها لم يرقعِ
وهي التي قطع الزمان طريقها حتى إذا غَرُبَتْ بغير المطلعِ
فكأنها بَرْقٌ تألق بالحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمعِ
أنعم بردِّ جوابِ ما أنا فاحصٌ عنه ، فنارُ العلمِ ذاتُ تشعشعِ

وتُذكرنا العينية ، بقول عمر الخيام في رباعياته ، كما ترجمها الأديب محمد السباعي :

عجباً للروح إن كان يطيقْ نضو سربالٍ من الطينِ صفيق
وسُمُوّاً لمدى النجمِ السحيقِ ما له ، تباً له ، قد لزما
سجنَه السُفْليَّ مذموم اللزام

* * *

ويمضي «ابن سينا» في تأمله ، فيرى «أنا نشاهد أجساماً تمشي وتتحرك بالإرادة ، بل نشاهد أجساماً تتغذى وتنمو وتولِّد المِثْلَ وليس ذلك بجسميتها ، فبقي أن يكون في ذلك مبادىء لها غير جسميتها .. والشيء الذي يصدر عن هذه الأفعالِ نسميه نفساً ».

وجمع «ابن حزم» في الجزء الخامس من كتابه (الفِصَل في الملل والأهواء والنحل) أقوالَ عددٍ من المتكلمين والفلاسفة في النفس . وقد ذهب «أبو الهذيل العلاَّف» إلى أنها عَرَضٌ كسائر أعراض الجسم . على

حين رأى تلميذه «النّظّامُ» أن الروحَ جسم لطيف ، وهي أفضل ما في الإنسان ، أو هي حقيقتُه ، والبدنُ آلتُها .

وأظنه رأي جمهور المعتزلة .

ونقل عن « أبي بكر عبد الرحمن بن كيسان الأصم » أنه أنكر النفس جملة وقال : لا أعرف إلا ما شاهدتْه حَواسّي . على حين يقول معمر بن عمرو العطار أحد شيوخ المعتزلة :

النفس جوهر ، ليست جسماً ولا عرضاً ، ولا لها طول ولا عرض ولا عمق ، ولا هي في مكان . ولا تتجزأ . وهي الفعالة المدبرة ، وهي الإنسان » .

وذهب «إخوان الصفا» إلى أنها فيضٌ صادر عن النفسِ الكلية أو نفس العالم . ونفوس أفراد الإنسان تؤلف جوهراً يمكن أن نسميه الإنسان المطلق أو النفس الإنسانية .

وهي عند «الكندي» في الرتبة الوسطى بين العقل الإلهي وبين العالم المادي . وهي من جوهرٍ بسيطٍ غير فانٍ ، هبطَ من عالم العقل إلى عالَم الحِس ، ولكنه مزود بذكرياتٍ من حياته السابقة ، وهو لا يقر له قرار في هذا العالم ، لأن له حاجاتٍ شتّى تحول دونها الحوائلُ الكثيرة.

ويقول الفارابي :« أنت مركب من جوهرين : أحدهما مشكّلٌ مصور ، مُكيّفٌ مُقَدَّر ، متحرك ساكن ، متجسد منقسم . والثاني مباينٌ للأول في هذه الصفات ، غير مشارك له في حقيقة الذات ، يناله العقلُ ويعرِضُ عنه الوهم ».

ويقول ابنُ مَسْكَويه : « إن النفسَ جوهرٌ بسيط غير محسوس بشيء من الحواس ، تدرك وجود ذاتها وتعلم أنها تعلم وأنها تعمل ».

والغزالي يقول : « إنها الإنسانُ على الحقيقة ، فهو بنفسه لا ببدنه » .
أما ابن رشد فيذهب إلى أن جوهر النفس وحقيقتها نشاطٌ وإدراكٌ عقلي .

• • •

ويشغل الحديث عن الروح فلاسفةَ الغرب المحدثين ، فيجحد الماديون وجودَها . ويفسر «هارتلي» العمليات العقلية بأنها لا تعدو أن تكون ذبذبةً في الجهاز العصبي .

وبقي المتدينون على القول بأن الإنسان : مادةٌ تبلَى ، وروح باقية خالدة لا تموت ...

• • •

والإيمانُ الديني بالحياة بعد الموت ، لم يحل دون تطلع البشرية إلى ذلك الأفق المحجوب .

والأحلام والرؤى ، هي التي وجّهت الإنسانَ — فيما أتصور — إلى محاولة الاتصال بما وراء الموت .

من حيث تبدو الرؤيا ، وكأنها تنسخ الواقعَ الصارم وتجمعنا بموتانا الراحلين ، في غيبةٍ من رقابة الوعي والإدراك الحسي .

وهي ظاهرة لافتة ، لم تكن لتمضي دون أن تغري الإنسان بجديد من المحاولات .

• • •

والإنسانُ بمحاولته الاتصال بما وراء الموت ، لا يتحدى حقيقةَ الموت الصارمة .

وأنى له أن يتحداها ، وما من مولودٍ يولَدُ إلا كان كل نَفَسٍ من أنفاس حياته محسوباً عليه من عمره ، وكل خطوة يخطوها على دربِ

الوجود ، ليست في الحقيقة إلا خطوةً على الجسر ما بين الحياة والموت ؟ كلا ...

ليس الأمر تحدياً ، وإن إنسانَ عصر القمر ليعي تماماً أنه لا يزال يقف تجاه الموت ، حيث وقف الإنسانُ الأول منذ ما لا يحصى من ملايين السنين ، ضائعَ الحيلة مغلوباً على أمره ...

وفي كل لحظة ، يودِّع الأحياءُ أحبابَهم الذين سبقوهم إلى المصير المحتوم ، وأقصى ما يملك أحدُنا أن يتأسى به ، هو أن يهتف بمن رحل : وداعاً ، وإلى الملتقى !

• • •

وكانت الأحلام والرؤى ، هي الوسيلة المتاحة للإنسان كي يلقى الأحباب بعد رحيلهم . وقد عاشت البشرية دهوراً وأحقاباً لا تجد غير الرؤى بديلاً لما كان الإنسان يحيا به في الأمس الذي ولى وراح . وقد تتجسد الرؤى عند مرهفي الحس والوجدان ، إلى المدى الذي يصير فيه هذا اللقاء في الرؤيا ، زادَ حياتهم الشقية وريَّ قلوبهم الصادية ، فإذا ما هزَّهم صدمةُ اليقظة ، خدَّرهم عنها انتظارُ موعد قريب مع الأحباب ، عند ما يحررهم النومُ من قيود الحسِّ الواعي ويطلقهم من أسر واقع حزين يقفون فيه على قبور أحبابهم يسألونهم فلا يرجعون جواباً ، ويخاطبونهم فلا يتلقون ردّاً غير رجع الصدى !

وكان أبو العلاء ، ممن أطالوا الوقوف على أجداث الراحلين ، يصغي في أعماق الصمت الموحش إلى رجع صداه :

وقفتَ على أجداثهم وسألتهم فما رجعوا قولاً ولا سألوكا

• • •

ولم يسمعواقولاً ، أمِنْ صمم بهم؟ ولم يفهموا رَجْعاً كأنهم خُرْس

(اللزوميات)

• • •

« لو غبرتْ ألفُ حقبة ، ما ورد عليَّ منهم كتابٌ ولا رسول ...

« سلم الله عليكم أهلَ ديارٍ لا يشعرون بتبلج الصبحِ ولا ترجُّل النهار . أشتاق إليكم وإلى مَنَ أشتاق ؟ لا الأرواح متكلمة ، ولا الأجساد ملتئمة ، ولا المنازل برحابٍ ...

«كيف أصبحتم أهلَ المنازل الدارسة ؟ إن ما أصابكم لَلخطبُ الجليل ... يهتف بكم الصائحُ فلا يجاب ».

(الفصول والغايات)

ولاذ الشاعر المحزون ، بالرؤيا تجمعه بمن رحلوا ، فقال في (سقط الزند) :

وبين الردى والنوم قُربى ونسبة وشتانَ بُرءٌ للنفوسِ وإعلالُ

إذا نِمتُ لاقيتُ الأحبةَ بعدما طوتْهم شهورٌ في التراب وأحوال

وقال في اللزوميات :

غُيِّبَ ميتٌ فمـــا رأتْـــه عينٌ ، سوى رؤية المنـــام

وفي الفصول والغايات :

« أسعد الله الأرواحَ ، فلا أعرف فائدةً للدفين في قول القائل : أيها القبرُ سُقيتَ غماماً ! إن الحيَّ والميت لا يتزاوران ، فرضي الله عن قوم نَراهم في الرقدةِ لماماً .

« سبحانك مؤبد الآباد ... هل للمنية نسَب إلى الرقاد ؟ لا أتخيل إذا انتبهت أحداً من الأموات ، وإذا هجعتُ لقيني قريبُ عهدٍ بالمنية ، ومَن قد فُقِدَ منذ أزمان . أسألهم فيجيبون ، وأحاورهم فيتكلمون ، كأنهم بِحَبْلِ الحياةِ متعلقون ...». [1] .

• • •

وما كانت ظاهرة التقائنا في رؤيا المنام بمن رحلوا عن دنيانا ، لتمر دون أن يلتفت إليها الباحثون عن المجهول .

والنومُ يُسقِطُ الوعيَ ...

فهل من سبيل إلى رؤيا الراحلين ، بإسقاطِ لوعيِ مَن يضنيهم موتُ الأحباب ؟

من هنا كان المنطلَقُ إلى المحاولة الجديدة لتسخير العلم في الاتصال بعالم الروح .

وليس من الضروري أن يكون أصحاب هذه المحاولة قد تنبهوا إلى انطلاقها من منطقة الأحلام والرؤى ، بل إن مثلَ هذا الانطلاق قد يحدث تلقائياً ، استجابةً لتطلع خفي من الوجدان البشري ، يبدأ من حيث تلوح له الرؤيا فتخايله بالأملِ في نقلها من حُلمٍ إلى واقع .

أو هذا هو ما أتصوره ، في ضوءِ المعروف لنا من ماضي تاريخ العلم وخطوات سير الحضارة :

---

١ تحدث كثير من الشعراء عن زيارة طيف الحبيب في الرؤيا ، والحبيب حي . وقد جمع الشريف المرتضى ، قدراً من أشعارهم في كتابه (طيف الخيال) .

فسفُن الفضاء مثلاً ، بدأتْ أولَ ما بدأت عند ما لاح للبشرية في قديمها الأسطوري ، حلمُ الطيران على أجنحـــةٍ من الجنِ أو بساط الريح .

وقد ظل الحلم يخايلها ويغريها بمحاولة تحقيقه ، فكانت تجربة «عباس ابن فرناس» على بساطتها وسذاجة وسائلها ، الخطوةَ الأولى لتحقيق الأمل الذي تعلقت به البشرية منذ حلمت ببساط الريح .

وأزرار العصر الآلية ، التي تلبي حاجات الإنسان المادية بلمسة هينة من إصبعه للأجهزة الكهربائية ، بدأت أولَ ما بدأت في الحلم الأسطوري الذي تراءى للبشرية ، فخيل إليها أن الإنسان يستطيع بلمسة هينة من إصبع لفصِّ المُلك في خاتم سحري ؛ أن يستحضر عبداً من الجان يقف بين يديه مسخراً في قضاء حاجاته وتحقيق رغباته ، قائلا في خشوع :

لبيك سيدي لبيك !

عبدك وملك يديك !

وعاشت الإنسانية دهوراً وأحقاباً دون أن تتخلى عن ذلك الحلم العجيب الذي اتجهت إليه أمانيها ، فكانت أزرار العصر الآلي ، هي التحقيق الواقعي للخاتم السحري الأسطوري ...

• • •

والأمر فيما يتصل برؤانا التي نلقى فيها أحبابنا بعد رحيلهم ، ليس من قبيل الأحلام الأسطورية !

ولا هو من ميراث العصور الخالية ، أعياها أن تُحققه بوسائلها البدائية ، فتركته للعصورِ من بعدها ، أمانةً وأملاً ...

وإنما الرؤيا في دنيانا حقيقةٌ لا تجحد ، إذا جاز لي أن أستعمل لفظ الحقيقة هنا ، وأنا أعني بها ما يحدث حقّاً من لقائنا بموتانا ، فيما تجسدُه الرؤى التي تفرض وجودَها على رواد الفضاء وغُزاة القمر ، كما تفرضه على المجتمعات البدائية في نجوع البادية وكهوف الإسكيمو وأدغال الغابات ...

فلكل إنسان منا أحلامُه ورؤاه .

وإن اختلف مجالُها وتفاوتتْ طاقاتُها على التشخيصِ والتجسيم والإحضارِ .

• • •

وعلمُ النفس الحديث يُخضع الأحلامَ لتفسيراتٍ يراها أصحابها تفسيرات علمية [1]

وقد يردون رؤى لقاء الأعزاء الراحلين ، إلى أشواقٍ ضاغطة لا تجد لها متنفساً في وعي اليقظة ورقابة الإدراك . فإذا ألحت الرؤى على إنسان منا وقويَ تجسيمُها للشخوص وإحضارها للأطياف ، فذلك في رأي النفسيين محاولة للهروب من مأساةِ فقد الأحباب ، وإمعانٌ في الإفلات من وطأتها الباهظة ، في غيبةٍ من رقابة الوعي . وربما عقّدوا الأمر على بساطته ، فلمحوا وراء الإلحاح في لقاء الموتى بالرؤيا ، وسيطرتها على وجدان الحالم ، عُقَدةً نفسية تحتاج إلى تحليل وحلٌ وعلاج !.

ولكن هذه التأويلاتِ وأمثالها ، لا تخرج عن كونِها فروضاً أو أو نظرياتٍ ، تظل عرضةً للنسخ أو التعديل ، ومجالاً لإعادة النظر .

• • •

---

١ وانظر « الروح الخالدة » ، ص ٦٧ .

ثم إني في الواقع لا أدري ما إذا كان النفسيون يفرقون بين الأحلام والرؤى ، أم إنهم يأخذون فيها بالدلالة المعجمية التي تُفسر الحلمَ بالرؤيا ، فكأنها تقول بترادفهما ؟

على حين نؤثر نحن ، أصحابَ التخصص في العربية لغةً وبياناً ، أن نستعمل الأحلام فيما هو من هواجسِ الوهم ، والأضغاثِ المختلطة المشوشة التي يعوزها ما للرؤيا من جلاء المرئي ووضوح التميُّزِ وقوة التمثُّلَ والإحضار . ولم يكن عبثاً عشوائياً أن العربية في حِسِّها الدقيق المرهف ، استعملت الفعلَ «رأى» للرؤيا ، وللرأيِ ، منقولاً إليهما من الرؤية . وإنما لحظت في هذا الاستعمال ، قوة الوضوح وجلاء المرئي فكأنه مشهود بالعين الباصرة ، ثم خالفت بين مصادر هذا الفعل الواحد ، بياناً لفروق الدلالة : فجعلت الرؤيةَ للبصرِ الحسي ، والرؤيا للمنام ، والرأيَ للأفكار والمعاني .

ولا بأس هنا من استطراد يسير ، ألفت به إلى ما يجلوه البيان القرآني من تمييز بين الأحلام والرؤى :

فكتابنا الأكبر لا يستعمل الحلم إلا بصيغة الجمع مع إضافة الأحلام إلى أضغاث ، دلالةً على الخلط والتشوش والتداخل . على حين تأتي «رؤيا» في القرآن ، مفردة دائماً ، دلالة على الوضوح والتميز . وسياق آيات «الرؤيا» جميعاً ، صريحُ الدلالة على صدق الإلهام .

فالملأ الذين استفتاهم ملك مصر في تأويل رؤياه عن « سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات » بدتْ لهم الرؤيا — وقد كانت صادقةَ الإلهام — من أضغاث الأحلام .

« يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا

أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ».

(يوسف : ١٤)

ففي الموقف الواحد ، يستعمل القرآن الرؤيا فيما رآه ملك مصر بجلاء ووضوح ويقول عنها الملأ من قومه أضغاث أحلام ، حين أعياهم أن يدركوا دلالتها الملهمة .

وكذلك أعيا المشركين من قريش ، أن يصفوا ما تلقى محمد صلى الله عليه وسلم من وحي ربه :

« بل قالوا أضغاث أحلامٍ بل افتراه بل هو شاعر ، فلْيأْتِنا بآيةٍ كما أُرسِلَ الأولون »

(الأنبياء : ٥)

وفي القرآن من الرؤيا ، غير رؤيا ملك مصر التي صدقتْ ،خمسُ رؤى أخرى ، كلها بصيغةِ المفرد ، وكلها كذلك في الرؤيا الصادقة . وملحوظ أنها في المواضع الخمسة من رؤى الأنبياء .

فرؤيا يوسف التي قصها على أبيه ، فقال له :

« يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين ».

تمضي القصة حتى تصدق الرؤيا :

« ورفع أبويه على العرش وخرُّوا له سُجداً ، وقال يا أبتِ هذا تأويل رؤياي من قبلُ قد جعلها ربي حقاً ».

وفي آية الفداء من قصة إبراهيم :

«وناديناه أنْ يا إبراهيم . قدصدَّقتَ الرؤيا إنا كذلكنجزي المحسنين ».

وكذلك صدقتْ رؤيا محمد صلى الله عليه وسلم ، في آية الإسراء :

« وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس » .

وفي آية الفتح :

« لقد صدَقَ اللهُ رسولَه الرؤيا بالحقِّ لتدخُلنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاء الله آمنين مُحلِّقين رؤوسَكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً

ولهذا البيان القرآني المعجز ، ندين بما نجتلي من أسرار العربية ، فنميز بين الأحلام والرؤى ، حين تمضي معاجمنا على القول بترادفهما .

• • •

وأعود من هذا الاستطراد إلى ما كنت فيه من حديثٍ عن نظريات النفسيين في الأحلام ، فلا أراها تعطينا تفسيراً مقنعاً لطاقة رؤانا على بث الحياة في شخوصٍ مَن أودعناهم جوفَ الثرى !

فنحن نراهم على العهد بهم ، في عِزِّ نضرتهم وحيويتهم لم ترهقهم غبرةٌ من موت . ونبادلهم الحديثَ والنجوى دون أن نحس في أصواتهم أثراً من إعياء أو فتور ، وكأنْ لم تضرب بيننا يدُ النوى فتمزق الشمل، وكأن لم يرقدوا في مضاجعهم صامتين هامدين !

وفي وعي اليقظة ، تأخذنا الحيرةُ والدهشة تجاهَ هذا السرِّ العجيب الذي يُلغي ما بيننا وبينهم من أبعادٍ تفوت الظنَّ والخيال ، وتتضاءل حيالها أبعدُ المسافات الكونية التي طواها إنسانُ العصر .

• • •

والعلم الحديث يستطيع أن ينقل الأصواتَ والصورَ عبرَ تلك المسافات الشاسعة في مثل لمح البصر .

لكن رؤانا ، ولا أقول أحلامنا ، تنقل إلى سمعنا وبصرنا بغمضةِ

عين ، أصواتاً أخرسها الموتُ وأجساماً عاث فيها البِلَى ...

دون أن تستعين على هذا النقلِ الفوري بأيِّ جهازِ تصويرٍ أو آلةِ تسجيل للصوت !

ودون أن ندري ماذا هنالك في عالم الموتى ، كي نوجه أجهزتنا الصوتية والضوئية لنقله !

من هنا ، كما قلت آنفاً ، يمكن أن يكون المنطلَقُ إلى ما نسمع من محاولةٍ جديدة للوقوف على حافة العالم الأثيري ، تشاغلها أحلامُ الاتصالِ بذلك الأفق البعيدِ غير المنظور .

يحدوها الإيمانُ بالحياة بعد الموت .

وتغريها الرؤيا ، بأن ترنو بأحلامها إلى لمح ما وراء الفناء الظاهر من عجيبِ الأسرار .

• • •

فمنذ لبّى الدينُ شوقَ البشرية إلى البقاء وأيّد نضالها العتيد في مقاومة فكرة العدم ، كان الإيمانُ بالحياة بعـد الموت ، هو الذي أغراهـا بالمحاولة .

وإذا كان في بني الإنسان من لاذوا براحة الاطمئنان إلى وَعْدِ لقائهم بأحبابهم في الحياة الآخرة ، والتمسوا من رؤياهم بعضَ العون على احتمال وطأة الانتظار .

فإن فيهم كذلك من ثقُلت عليهم مأساة الإنسان ، فرفضوا الحياةَ والتمسوا لدى الموت إحدى الراحتين .

وآخرون منهم ، عزَّ عليهم اليأسُ ، كما عزَّ الاحتمال ، فمضوا يحاولون الاتصال بأرواح الأحباب بعد رحيلهم .

تخايلهم الأحلامُ في اقتحام ذلك العالم المحجوب ، بما تهيأ للعصر من وسائل ، بعد أن تحكم الإنسان في موجاتِ الأثير ، وفَهِمَ ظواهرَ الفضاءِ الكوني ، وانتصر على المسافات الشاسعة ...

ويمكن القول بأن المحاولة بدأت منذ قرن وبعض قرن ، دون أن يغيب عني أنها مرَّتْ بمرحلة طويلة سابقة ، اعتمدت في تحضير الأرواح على الوهم والتخييلِ والسحرِ ، وما تزال رواسبُ من تلك المرحلة الغابرة ، باقية إلى عصرنا في المجتمعات البدائية التي تعيش بمنطقِ السحر وتفكر بعقليةِ عصرهِ السحيق .

ولكن الجديد في المحاولة ، هو دخول عدد من علماء الطبيعة في الميدان ، وتشبثهم باقتحام عالَم الروح الغيبي ، بوسائلَ مستحدثَة لم يكن لفنونِ السحَرةِ وألاعيبِ الجنِّ عهدٌ بها . وسجّلَ منتصفُ القرن التاسع عشر بدايةَ التطور في موضوع استحضار الأرواح ، بتأسيس المدرسة الروحية في لندن سنة ١٨٤٨ ومن ذلك الحين بدأت تتناثر أقاويلُ وشائعاتٌ وأنباء ، عن غريبِ التجارب التي يقوم بها بعضُ علماء الطبيعة لاستحضار أرواح الموتى ، عن طريق وُسَطاء ذوي تكوينٍ طبيعي خاص ، يقال إن أجسامهم تحمل من عنصر «الأكتوبلازم» قدراً يفوق بكثير ، ما تحمله أجسامُ عامةِ الناس .

والذين كتبوا عن هذه التجارب ، يتحدثون عنها بلغةٍ قريبة من اللغة العلمية التي مَرِنوا عليها في دراستهم المتخصصة للطبيعة .

على أن المحاولة ظلت تُقابَل بالصدِّ والشكِّ والتجاهل ، أو بالسخرية والازدراء ، حتى جذبت إلى ميدانها أشهرَ العلماء الإنجليز في الربع الأول من القرن العشرين : « سير أوليفر جوزف لودج » الذي أضفى عليها نوعاً

من الثقة ، بمجدِه العلمي العتيد ، وبحوثه القيمة في الإليكترونات والأثير والبرق ، ومكانته العلمية مديراً لجامعة برمنجهام ، وأستاذاً لجيلٍ من علماء عصرنا .

وقد دخلَ الميدانَ إثرَ صدمةٍ هزت كيانَه ، إذ قُتِلَ ولدُه في الحرب العالمية الأولى ، فكان اتجاهُه إلى عالَم الروح عاصِماً له من الانسحاق تحت وطأة الصدمة ، وكانت تجاربُه للاتصال بروح ولده ، مَشغلةً له عن الحزن المتلف والأسى المدمر .

ودخوله الميدانَ ، لم يُضْفِ على المحاولة نوعاً من الثقة فحسب ، بل إنه كذلك شدَّ بجاذبية شخصيتِه ووقار سنه ، عدداً غيرَ قليل من العلماء بدأت بهم مرحلةُ رواج وازدهارٍ في الربع الثاني من القرن العشرين ، بحيث صارت تجاربُ استحضارِ الأرواح «مودة» ذاك العصر !

والذين شاركوا فيها ، يؤكدون أن تجاربهم أوصلتهم إلى ظواهرَ بالغةِ الغرابة ، وأنهم استطاعوا أن يسجلوا أصواتاً للموتى الذين تحضر أرواحُهم في الجلسات ، وأن يلتقطوا صُوَراً لبصمات أصابعهم ، بشهاداتٍ قدموها لعددٍ من العلماء ذوي السمعة الطيبة ...

* * *

وانتقلت إلينا أصداء من ذلك كله ، عن طريق المرحوم «الأستاذ أحمد فهمي أبو الخير» الذي ترجم كتاب (على حافة العالم الأثيري) للعالم الاقتصادي «جيمس أرثر فندلاي» الذي قضى نحو ثلث قرن في دراسة الميثولوجيا الدينية ، ثم عبر منها إلى حافة العالم الأثيري ، ورأسَ « المعهد الدولي للبحث الروحي في لندن » .

وراج كتابه فينا ، فطُبِعت ترجمتُه العربية ثلاث طبعات ، آخرها

عام ١٩٥٤ ، بعد أن فترتْ المحاولة في أوروبا وآذن عهد ازدهارهـا بمغيب ، فساغ للموسوعة العربية الميسرة أن تقدم مادة «بحوث روحية» في سياق «المظاهر الهيستيرية والهوسات الجماعية التي تحدث في الجلسات المعروفة عند العامة بتحضير الأرواح »

ثم تختم الموسوعة هذه المادة بما نصه :

« والبحوث الروحية يعوزها الضبط العلمي التجريبي ، ويُعَدُّ الاهتمام الزائد بها من الأعراضِ المرَضية النفسية».

• • •

وفات (الموسوعةَ) وهي تُلقي حكمَها السريع بمثل هذه البساطة الهينة ، أن تَرُدَّ انحسار موجة الروحانيات إلى غلبة المادية على العصر من ناحية ، وإلى التطورِ العلمي الحديث من ناحية أخرى .

فتجافي العلم عن هذه الغيبيات ، التزام بمنهجه التجريبي الدقيق ، الذي يرفض أن يقول في الغيبيات بنفي أو إثبات . ويرى فيها رجعة إلى عصر (الميتافيزيقا) الذي زيّن للعقل الإنساني قديماً ، أن يقتحم المجاهلَ وراء الطبيعة ، ليصل إلى أسرار العناصر وكُنهِ الأشياء .

والعلم الحديث يدرك حق الإدراك أن وراء الظواهر الكونية أسراراً خفية ، لكنه يتجه ببحوثه إلى دراسة الظواهر وكشف الخصائص ، تاركاً أسرارَ الميتافيزيقا حتى تخرج من نطاق الغيبيات فيسقط عنها الحرج .

وقلَّ فينا من التفت إلى أن الدين يلتقي مع العلم في هذا الموقف ، إذ يأبى علينا أن نخوض في الغيبيات بغير علم !

أما حين يصل العلمُ إلى اكتشافِ شيء مما كان غيبياً ، فقد خرج

من نطاق الحظر ، وسقط عنه الحرجُ الديني والحرجُ العلمي ، كلاهما !

• • •

ومن حق العلماء الذين ناضلوا مستبسلين في مجال البحث الروحي ، أن نلقى جهودهم الجادة المضنية بالعطف والتقدير . مهما يعوزنا الاقتناع بها . وكتاب الإسلام يحمينا من التورط في مصادرة حقّ البحث أو رفضِ ما قد يثبته العلم من نتائجه ، لأن كلّ البحوث التي يطلق عليها «البحوث الروحية» لا تعدو أن تكون من ظواهر الروح ، ولا شيء منها يصل إلى سِرِّها المحجوب أو يدرك كنهَ حقيقتها .

ونحن نتلو آية الروح في كتاب ديننا :

« ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمرِ ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »

فندرك ضآلةَ ما أوتينا من العلم ، ويأخذنا هذا الإدراكُ بشيءٍ من التواضع ، يُلزمنا حدّنا عند فهم الظواهر الروحية . والذي وصلتْ إليه بحوثُ المشتغلين بتحضير الأرواح ، لا يخرج عن كونه ظواهرَ . ولست أرى فرقاً ذا بال ، بين استحضارِ روحٍ من عالم الموتى بتعطيل الإدراك الحسي للوسيط وإسقاطه في غيبوبة اللاوعي ، وبين ما تمنحنا رؤانا ، دون أي وسيط ، من إحضارِ لشخوصِ أحبابنا الراحلين ، في غيبة من وعي اليقظة والإدراك الحسي !

• • •

والعلم هنا يؤازر الدين ما دام هذا العلم عاجزاً عن كشف سر الروح وإخضاعها لسلطانه بحيث يستطيع التحكمَ فيها والسيطرة عليها

وتسخيرها ، كأن ينفخ مثلاً في جسدِ ميتٍ فيرده إلى الحياة ، أو يصنع تمثالاً جامداً على هيئة آدمي ثم يبث فيه روحاً تجعل منه إنساناً حياً ، أو ينشىء مخزناً للأرواح على غرار مصارف الأعين والدم ...

أذكر أنني في إحدى رحلاتي إلى ألمانيا ، دُعيت لكي أتفرج على ما وصفه القوم هناك بأنه إحدى معجزات العلم : تمثال مصنوع على هيئة بقرة ، مزودة بعدد من الأسلاك والأزرار الكهربائية ، يضغط الموكّلُ بها على زرٍّ فتتحرك البقرة ، ويضغط على آخر فتخور كخوار البقر ، ويضغط على ثالثٍ فتدر اللبنَ من أثدائها !

يومها سُئلت عن هذه (المعجزة) فأجبت :

ـ عجيبة حقاً ، لكنها ليست أعجبَ من الإنسان الآلي ، وبالتأكيد ، ليست أعجب من (الراديو الترانزستور) والعقل الإلكتروني ! ولن تكون معجزة حتى تستغنوا عن كل هذه الأزرار والأسلاك الكهربائية !

ثم استطردت فسألت :

ـ إنكم لتعرفون أدقَّ المعلومات عن أجهزة البقرة الطبيعية ، وتعلمون كل المواد التي تتكون منها ، ومقدار كلِّ مادة ونسبتها ، فهل في طاقتكم أن تبثوا روحَ الحياة في أي عضو من أعضائها ؟

وتلوتُ فيما بيني وبين نفسي آيةَ الروح :

«ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا».